النظام النحوي والقرائن الصوتية

الباحث/ رضا علي محمد عبد العال
إشراف
الأستاذ الدكتور/ محمد خليفة محمود
رئيس قسم النحو والصرف والعروض
كلية دار العلوم- جامعة المنيا

المبحث الأول: النظام النحوي والقرائن الصوتية

ولقد قدمت الحديث عن هاتين القرينتين؛ نظرًا لأنهما تبرزان في اللغة المنطوقة، واللغة العربية لغة منطوقة[1] أكثر منها مكتوبة، كما أنني سأقدم الحديث عن قرينة العلامة الإعرابية؛ لإمكانية تحققها نطقًا وكتابة، ولعدم الرغبة في الخروج عن نهج النحاة من تقديمهم للحديث عن العلامة الإعرابية إلا لسبب مقنع، ومن ثم سوف يكون حديثي في المطلب الأول عن النظام النحوي والعلامة الإعرابية، وفي المطلب الثاني عن النظام النحوي والتنغيم.

المطلب الأول: النظام النحوي والعلامة الإعرابية

إن العلاقة بين النظام النحوي والعلامة الإعرابية علاقة متبادلة، كل طرف منهما يحاول أن يكون إيجابيًّا مع الطرف الآخر، فما هدف كل منهما؟ إن هدف النظام النحوي من العلامة الإعرابية أن تتحقق بكل وجه ممكن، فلا يكون هناك مجال للقول بالإعراب المحلي، أو المقدر نتيجة الثقل أو التعذر، أو أي شيءٍ من هذا القبيل سواء أكان يتعلق بها أو بالعامل في الكلمة التي تحمل هذه العلامة، وهدف العلامة الإعرابية تلبية هذا المطلب للنظام، بأن تظهر واضحة جلية دون حاجة إلى تقدير، أو تأويل، أو أي شيءٍ من ذلك، والمشكلة التي تواجه الطرفين هي مشكلة واحدة مركبة، أساسها طبيعة الكلمة التي تحمل العلامة الإعرابية، والمتحكم فيها هو السياق الذي يسعى إلى

[1] لأن إعجاز هذه اللغة يظهر في نطقها، فعلى سبيل المثال: حرف الضاد يوجد في اللغة العربية ولا يوجد في أي لغة أخرى على مستوى العالم، والعرب هم أفصح من نطقه، كما أن هذه اللغة استخدمت منطوقة قبل أن تستخدم مكتوبة بعدة قرون، كما أن المنطوق منها يفوق المكتوب كمًا وكيفًا.

التخفيف على مستخدم هذه اللغة، ومن ثم فالذي يواجه العلامة الإعرابية ويعوقها من الظهور هو طبيعة الكلمة التي تحملها، والذي يعوق النظام عن الوصول إلى كل أهدافه هو السياق، ومعنى ذلك أنه لكي لا يحدث صدام بين النظام والعلامة من جهة، والسياق والكلمة من جهة أخرى لا بد أن تأتي الكلمة محل الإعراب قابلة لظهور العلامة الإعرابية التي لا تحتمل إلا معنى وظيفيًّا واحدًا، فإن خرجت عن ذلك بأن احتملت أكثر من معنى، أصبح الصدام موجودًا بين النظام النحوي والسياق اللغوي، ولكي تؤدي الكلمة وظيفتها النحوية حاملة العلامة الإعرابية الظاهرة، لا بد أن تتوافر فيها الشروط الآتية[1]:

١- أن تكون منتهية بحرف يقبل ظهور العلامة الإعرابية دون تعذر، أو ثقل.
٢- أن تكون ذات أصل اشتقاقي.
٣- أن تكون ذات صيغة صرفية.
٤- أن تكون غير شبيهة بالحرف لفظيًّا، أو معنويًّا.
٥- ألا تحتاج إلى تأويل في ذاتها، ولا إلى تقدير في عاملها.

هذه هي أبرز الشروط التي يمكن للكلمة من خلالها أن تؤدي وظيفتها النحوية منسجمة مع النظام النحوي، وقبل أن أخوض في تطبيق ذلك لا بد أن ندرك أن القراءات القرآنية هي أكثر المجالات احتمالًا للتأويل، مما يجعل الصراع مستمرًّا بين كل من النظام والسياق، فما تعددت القراءات القرآنية إلا من أجل استيفاء الوجوه المحتملة لكلمات القرآن الكريم، ولكنني سألتمس موضعًا تقل فيه الأوجه المحتملة؛ حتى نستطيع أن نبرز من خلاله العلاقة بين النظام النحوي والعلامة الإعرابية، ولبيان ذلك ندلف إلى النص القرآني، حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤] حيث قرأ السبعة ﴿**حَتَّى يَقُولَ**﴾ نصبًا، إلا نافعًا قرأ ﴿**حَتَّى يَقُولُ**﴾ رفعًا[2]، فعلى القراءة الأولى (النصب)، يكون ما بعد «حتى» منصوبًا على الغاية، أو التعليل، أي: وزلزلوا إلى أن يقول الرسول، أو وزلزلوا حتى يقول الرسول، ومعنى الكلام- الذي بعد

---

[1] ينظر الدكتور تمام حسان: البيان في روائع القرآن، صـ١٩٨، ١٩٩.

[2] ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـ١٨١، وابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٢٢٧.

«حتى»- هنا على الاستقبال، والمعنى الأول أظهر؛ لأن المس والزلزال ليسا معلولين لقول الرسول والمؤمنين، أما علي القراءة الثانية (الرفع) فيكون معنى الكلام دالًّا على الحال في حين الإخبار، نحو: مرض حتى لا يرجونه[1]، أي مرض فيما مضى حتى هو الآن لا يُرجى، أو دالًّا على حالٍ قد مضت، فيحكيها على ما وقعت، فيرفع الفعل على أحد هذين الوجهين، والمراد به هنا المضي، فيكون حالًا محكية، والمعنى: وزلزلوا فقال الرسولُ.

ومن خلال توجيه هاتين القراءتين نجد أن قراءة النصب أخلصت الفعل بعدها للاستقبال بالنسبة لزمن التكلم، وهذا يحمل ما يحمل من استحضار المشهد الذي كان عليه الرسول ومن معه من المؤمنين، وكأن هذا الكلام يحدث في زمن التكلم، فيكون أشد وقعًا في نفس المتلقي، أما قراءة الرفع فالكلام عليها محكي مما يجعل كثيرًا من الناس لا يفهم الغرض منها، ويأخذها على أنها مجرد قصة تُحكى، وإن كان النحاس ذهب إلى أنها تَحمل ما تشير إليه قراءة النصب نصًا[2]، إلا أن استحضار المشهد على قراءة النصب أبين.

على كلٍّ فالنظام النحوي لا يرغب في كل هذه المداخلات، فتارة تدل «حتى» على معنى الحال، وتارة أخرى تدل على معنى الاستقبال، وتارة ثالثة تدل على المضي والكلام محكيٌّ، إلا أن السياق اللغوي بما له من علاقات متشابكة مع السياق غير اللغوي يجعل المعنى يحتمل أكثر من دلالة، والعلامة الإعرابية بكونها واحدة من القرائن المؤثرة في مثل هذا التركيب تتردد بين الحالتين لتؤدي- على كل منهما- معنى وظيفيًّا مختلفًا، قد يكون أكثر تأثيرًا في نفس المتلقي من الآخر، فمن لا يفهم من قراءة الرفع- ومجيء «حتى» لتحمل الدلالة على الاستئناف- المبالغة في تصوير شدة المحنة على الناس، وتناهيها إلى أقصى غاياتها قد يفهم ذلك من خلال استحضار المشهد على قراءة النصب، وعلى الرغم من كل ما ورد في قراءة هذا الموضع من اختلاف في القراءة، واختلاف في توجيه دلالة كل قراءة، إلا أن النظام لم يتاثر كثيرًا؛

---

[1] ينظر أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ٢/ ٣٧٣.

[2] ينظر ابن النحاس: إعراب القرآن، ١/ ١٠٨، والدكتور أحمد سعد محمد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، صـ١٢٧، ١٢٨.

حيث إن العامل الوحيد الذي أحدث كل هذا الاضطراب هو عامل الدلالة لـــ«حتى» بتأثيرها على دلالة التركيب بأسره.

ولكي تتضح الصورة نمثل بمثال آخر، حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾ [الجاثية: ٣٢] حيث قرأ حمزة وحده ﴿**والسَّاعَةَ**﴾ نصبًا، وقرأ الباقون ﴿**وَالسَّاعَةُ**﴾ رفعًا[١]، ففي هذا الموضع يبرز دور النظام بصورة أوضح، حيث إن (الساعة) على قراءة النصب لا تحتمل إلا العطف على قوله ﴿**وَعْدَ**﴾، كما أنها على قراءة الرفع لا تحتمل إلا أن تكون مرفوعة على الابتداء، والواو استئنافية[٢]، أو معطوفة على محل إن واسمها[٣] والواو عاطفة، ومن ثم فمجال التقدير أو التأويل محدود، ولا يوجد ما يستدعي تدخلًا من قِبَلِ السياق ليغير شيئًا يؤثر بسببه على مصلحة النظام، فالنظام قد استطاع أن يستقل بنفسه عن أي تدخل في شأنه، والذي ساعد على ذلك هو ظهور العلامة واضحة من ناحية، ومساعدة التركيب بعدم وجود أي مجال للتقدير أو التأويل أو أي شيء من هذا القبيل من ناحية أخرى، إلا أن تغير العلامة نفسه يعد تغيرًا لا يرغب فيه النظام، ولكن هنا نتساءل: ما الفائدة التي عادت على العلامة الإعرابية بتغيرها من النصب إلى الرفع أو العكس؟ إن العلامة الإعرابية على قراءة النصب أفادت التأكيد الناتج عن تأثرها بأداة التأكيد (إنّ) الداخلة على الجملة التي تحوي الكلمةَ المعطوفَ عليها، وهذه الدلالة وإن كانت قد فقدتها العلامة بجعل الواو استئنافية، إلا أنها استعاضت عنها بدلالة أقوى عندما تغيرت من النصب إلى الرفع، إن هذه الدلالة الجديدة هي دلالة الثبوت والاستقرار التي يدل عليها الرفع، فالواو إن كانت قد استجابت لمطالب السياق الذي أثر في تغيرها من الفتحة إلى الضمة إلا أنها ما استجابت إلا لفائدة، وهي تقوية التأكيد بالدلالة على الثبات والاستقرار.

---

[١] ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـــ٥٩٥، وابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٣٧٢.

[٢] ينظر الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، محققه الإمام أبو محمد بن عاشور، ٨/ ٣٦٧، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـــ/ ٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، والبغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٧/ ٢٤٢.

[٣] قاله الزجاج (ينظر: معاني القرآن وإعرابه، ٤/ ٤٣٥).

بناء على ما سبق فالنظام يحرص دائمًا على تحقق العلامة الإعرابية دون أدنى غموض، إلا أن ذلك لن يتيسر دائمًا، فهناك عوائق تقف في طريق ذلك، في مقدمتها طبيعة الكلمة التي تحمل هذه العلامة، مما يفتح باب تَدَخُّلٍ في شأن النظام من قبل السياق، وقد يكون السبب الذي جعل نحاتنا القدامى يهتمون بالإعراب والعلامات الإعرابية وفكرة العامل يرجع إلى سلوك النظام وحرصه على تطبيق قواعده دون أي تقصير، ولو تيسر له ذلك بأن جاءت الكلمات على ما يريد ولم يقف السياق في وجهه عند الثقل أو التعذر أو غير ذلك لما عارضنا النحاة في مغالاتهم بدور العلامات الإعرابية؛ لأنها وقتذاك تكون بالفعل تمثل القرينة الأهم، بل الوحيدة لولا ما ذكرتُ.

ولكي يبرز دور النظام بصورة أشد نمثل بقول الله تبارك وتعالى ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾ [البقرة: ٧٢]، حيث إن علاقة النظام النحوي بالعلامة الإعرابية لم يلحقها أيُّ نوع من الاضطراب، وذلك جاء نتيجة ظهور العلامة من ناحية، وذكر العامل من ناحية أخرى، ومجيء العامل على معناه الذي وُضِعَ له من ناحية ثالثة، وحفظ الرتبة من ناحية رابعة، وصلاحية البنية لأداء وظيفتها النحوية التي تزاولها من ناحية خامسة، وترابط التركيب وتضامه ...إلخ، كل هذه عوامل أدت إلى المحافظة على كيان النظام النحوي، من خلال انسجامها مع مراده الذي يهدف إليه وهو وضوح الإعراب، ووضوح العلامة الإعرابية وعدم وجود أي فرصة لإقحام التأويل في القاعدة النحوية، مما يجعل العلامة الإعرابية إذا ما جاءت على مراد النظام النحوي تستطيع بالفعل أن تحقق كثيرًا مما أعطاه النحاة لها من الاهتمام.

وبناء على ما سبق في ثلاثة الأمثلة يبدو أن العلاقة بين النظام النحوي والعلامة الإعرابية متداخلة لا يتحكم فيها عامل واحد، وإنما تحكمها عدة عوامل في مقدمتها بنية الكلمة التي تسمح بظهور العلامة عليها من ناحية، وصلاحيتها لأداء الوظيفة النحوية المنوطة بها من ناحية أخرى، ثم يأتي دور العامل، ثم تأتي بقية القرائن؛ لتقوي موقف العلامة، مما يؤدي إلى تقوية دور النظام، وقد يكون ذلك هو السبب وراء اهتمام النحاة بفكرة العامل والعلامة، فنظروا لدورها عند انسجام بقية القرائن، ولم يركزوا الاهتمام نفسه عليها حال عدم انسجامها مع هذه القرائن، ولذلك فإنه كلما تحقق الانسجام بين العلامة وبقية القرائن التي تقود إليها كلما تحقق الانسجام بين النظام النحوي والعلامة الإعرابية.

المطلب الثاني: النظام النحوي والتنغيم

يبدو أن نحاتنا القدامى لم يعطوا التنغيم حقه من الاهتمام[١] كما هو الحال في بقية القرائن اللفظية عدا العلامة الإعرابية، بل إن التنغيم– وسماه الدكتور إبراهيم أنيس موسيقى الكلام[٢]– يعد أقل القرائن اللفظية حظًا من الاهتمام، مما جعل كثيرًا من الدارسين يتهمهم بأنهم لم يعالجوا شيئًا منه، ولم يعرفوا كنهه[٣]، إلا أن الواقع يثبت غير ذلك، فهم قد أشاروا إليه إشارات واعية في كثير من مصنفاتهم، مما يدل على أنهم فطنوا له، وأدركوا قيمته، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول سيبويه في باب الندبة: «اعلم أن المندوب مدعو، ولكنه متفجع عليه، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف؛ لأن الندبة كأنهم يترنمون بها»[١] فكأنه يعني أنهم يُلَوِّنُونَها بموسيقى معينة، ونمط من التنغيم خاص[٢].

ويقول الجاحظ في باب أدوات البيان الخمس: «والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّلِّ، والشكل، والتفتل، والتثني، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور»[٣] فهو عندما يذكر الصوت والتأليف والتقطيع ... من تمام حسن البيان

---

[١] ينظر الصادق محمد آدم: توظيف السياق في الدرس اللغوي، دكتوراه، صـــ١٣١، ٢٠٠٧م، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، السودان.

[٢] ينظر الدكتور إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، صـــ١٠٣، مكتبة نهضة مصر، والدكتور أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، صـــ٣٦٦، ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٧م، عالم الكتب، القاهرة.

[٣] ينظر براجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، تخريج وتصحيح وتعليق الدكتور رمضان عبدالتواب، صـــ٧١، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٤م، مكتبة الخانجي، القاهرة، والدكتور رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، صـــ١٠٦.

[١] سيبويه: الكتاب، ٢/ ٢٢٠.

[٢] ينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـــ٥٥٠.

[٣] الجاحظ: البيان والتبيين،١/ ٨٤، ١٤٢٣هـــ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، وهبة موفق عبد الحميد النعيمي: أنماط التحويل في الجملة الفعلية، دراسة تطبيقية في القرآن الكريم، سورة آل عمران أنموذجًا، رسالة ماجستير، ٢٠٠٨م/ ٢٠٠٩م، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، الأردن.

باللسان فهو يعبر عن إدراكه التام لدور التنغيم وما يلازمه من دلالة، وإن لم يكن صرح بالمصطلح (الاسم) إلا أن المفهوم (المسمى) مكتمل في ذهنه.

وابن جني في مقدمة كتابه (سر صناعة الإعراب) يقول: «ولكن هذا القبيل من هذا العلم أعني (علم الأصوات والحروف) له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم»[٤] فالتعبير بالمصطلح (النغم) فيه دلالة واضحة على إدراك أن الكلام المنطوق يصدر منغمًا، وأن هذا التنغيم جزء لا يتجزأ من خواص الكلام[٥]، بل إن ابن جني يقدم لنا دليلًا آخر ينبئ عن وعيه بموسيقى الكلام وتلوين نغماته، فيقول عند الكلام عن حذف الصفة: «وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه الكتاب من قولهم: (سير عليه ليل)، وهم يريدون (ليل طويل) وكأن هذا إنما حُذِفت الصفة لما دلّ من الحال على موصوفها، وذلك أنك تحس من كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله (طويل)، أو نحو ذلك، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: (كان والله رجلًا) فتزيد في قوة اللفظ «الله» وتتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها، أي: رجلًا فاضلًا، أو شجاعًا، أو كريمًا، أو نحو ذلك، وكذلك تقول: (سألناه فوجدناه إنسانًا)، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانًا سمحًا، أو جوادًا، أو نحو ذلك، وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق، قلت: (سألناه وكان إنسانًا)، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانًا لئيمًا، أو لَحِزًا، أو مُبخِلًا، أو نحو ذلك، فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة، فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لايجوز»[١].

هذا النص في حقيقة الأمر لا يقتصر منطوقه على تأكيد وعي ابن جني بموسيقى الكلام ودور نغماتها ولحونها في الفهم والإفهام وتنميط تراكيب الكلام إلى أجناسها التركيبية والدلالية، وإنما تعدى ذلك إلى ما هو أعمق وأشمل، إن هذا النص في مجمله يشير– وإن بلمحات خاطفة– إلى مسألة ذات بال في الدرس الصوتي في عمومه هي ما

---

[٤] ابن جني: سر صناعة الإعراب، ١/ ٩.

[٥] ينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـ٥٥٠.

[١] ابن جني: الخصائص، ٢/ ٣٧٢، ٣٧٣، وينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـ٥٥١، وهايل محمد طالب: ظاهرة التنغيم في التراث العربي، صـ٩١،العدد(٩١)، مجلة التراث العربي، دمشق، سورية.

اصطلح عليه الآن بـــ«فن أداء الكلام»، ومعناه– في إيجاز– أن الكلام الصحيح بنغمات مختلفات منتظمة لَظواهرُ صوتيةٌ أخرى من نبر وتطريز وتفخيم لبعض الأصوات أو المقاطع وفقًا للمقصود وطبقًا لمقتضى الحال، فجمع بذلك بين الصحة الداخلية (التركيبية) والصحة الخارجية للمنطوق، ولم يفته أن يؤكد على أهمية الصحة الخارجية (غير التركيبية، أو التطريز الصوتي)، فأشار إلى ما يصاحب هذا المنطوق أو ذاك، من إشارات جسمية تلائم المقصود من مدح أو قدح مثلًا، وتخدم النص في توصيل هذا المقصود طبقًا للحال أو مقام الكلام، فلله در ابن جني صاحب الآثار التي نعتمدها بمثابة المذكرات التفسيرية لقوانين العربية التي يُسترشَد بها في تطبيق هذه القواعد، وفهم أصولها وأسرارها[١].

هذه مجرد إشارات، إلا أن التراث النحوي يحوي كثيرًا من النماذج التي تدل على إدراك نحاتنا القدامى للتنغيم وأثره في تغيير المعاني، وهنا يطرأ سؤال: إذا كان علماؤنا القدامى أدركوا ذلك، فلم لم يعطوه حقه من الاهتمام ويفردوا له مصنفات مستقلة؟ والرد على ذلك لا يحتاج إلى إطالة تفكير، فهو يرجع إلى أسباب عدة أهمها:

١- أن التنغيم لا يظهر أثره إلا في اللغة المنطوقة، ولكي يتم دراسته لا بد من رصده، فكيف ذلك في عصر لا توجد به أجهزة تمكن من مثل ذلك؟.

٢- أن العلامة الإعرابية بكونها تغني في مواضع كثيرة عن التنغيم، استأثرت بجُلِّ الاهتمام، مما أدى إلى إهمال كثير من القرائن من بينها التنغيم.

٣- أنهم اكتفوا بالتعرض للحديث عنه في مواقفه التي يرد فيها، فلا شك أنه تعددت آراؤهم في إعراب كثير من التراكيب بناء على طريقة الأداء الصوتي التي ورد بها الكلام المكتوب، ومن ذلك: قولهم في إعراب قوله تعالى ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ٢]، فهي تحتمل جملة، أو اثنتين، أو ثلاثة[٢]، نتيجة الأداء الصوتي المختلف الذي يمكن أن تؤدى به[٣].

---

[١] ينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـــ٥٥١ ، ٥٥٢.

[٢] ينظر أبو حيان: البحر المحيط ،١/ ٦١– ٦٤.

[٣] ينظر فتحي ثابث علم الدين: أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته «دراسة نصية من القرآن الكريم»، رسالة دكتوراه، صـــ٢٨٩– ٢٩١، ١٩٩٤م، قسم النحو والصرف والعروض، كلية الدراسات العربية، جامعة المنيا.

٤- أن الاهتمام بالتنغيم يؤدي إلى إضعاف دور العلامة الإعرابية، فإذا ما أعدنا النظر في موقف أبي الأسود الدؤلي مع ابنته، ولا يشك أحد في قدرة ابنته على أداء قولها بطريقة صوتية معينة معبرةٍ عما تريد من معنى حتى في ظل إهدار العلامات الإعرابية، إلا أنه مجرد القول بأن التنغيم أغنى عن العلامة الإعرابية في مثل هذا الموقف- الذي يهدف إلى بيان أهمية التقعيد للغة العربية على أسس ثابتة تظهر نطقًا وكتابة- فإن أهمية العلامة الإعرابية تتضاءل.

٥- أن التنغيم الواحد قد يعبر أحيانًا عن أكثر من معنى، مما يجعل لمقام الحال دورًا مؤثرًا فيه، مما يجعل تحليله وتحديد المراد منه يجب أن يكون في أثناء الموقف، فإذا ما تأخر عن ذلك أصبح من الصعب تحديده.

ولكي تتضح العلاقة بين النظام النحوي والتنغيم، لا بد من إدراك أن النظام النحوي لا يرغب في وجود أكثر من تنغيم للجملة الواحدة؛ لأن أداء الجملة الواحدة بأكثر من إطار صوتي يضعف دور النظام النحوي، ويجعل القاعدة النحوية مضطربة، ولكي تتضح الصورة ندلف إلى النص القرآني، حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٧] حيث قَرَأَ حَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ ﴿**نُكَذِّبَ**﴾، و﴿**ونَكُونَ**﴾ نصبًا وَافَقَهُمُ ابْنُ عَامِرٍ فِي ﴿**وَنَكُونَ**﴾، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ فِيهِمَا[1]، فهذه الآية القرآنية الكريمة يتصدرها الشرط بـــ(لو)، وجملة الشرط مكونة من ثلاثة أقسام: أداة الشرط، ثم جملة الشرط، ثم جملة الجواب، إلا أنها في الأداء الصوتي تنقسم إلى قسمين فقط، لماذا؟؛ لأن الأداة لا يمكن فصلها عن جملة الشرط فتؤدى بنغمة واحدة، وهي النغمة الصاعدة؛ لأنها متعلقة بما بعدها، ثم تأتي جملة الجواب فتؤدى بنغمة هابطة[1]؛ للدلالة على تمام الكلام، وجملة الجواب هنا محذوفة، فيتم أداء صدر جملة الشرط وما يرتبط بها- متمثلًا في الأداة والجملة وما يتعلق بما هو في حيز جملة الشرط- بنغمة صاعدة، ثم يأتي المتمم للمعنى- وهو جملة مقول القول وما يتعلق بها- بنغمة هابطة، فيكون

---

[1] ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـــ٢٥٥، وابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٢٥٧.

[1] ينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـــ٥٤١، ٥٤٢، والدكتور أحمد كشك: من وظائف الصوت اللغوي، صـــ٦٦.

الإطار الصوتي للآية القرآنية هكذا: ﴿**وَلَوْ/ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ/ فَقَالُوا**﴾ حيث يُؤدى هذا الجزء الذي يحوي الأداة (ولو)، وجملة الشرط (ترى إذ وقفوا على النار)، والمعطوف (فقالوا) بنغمة صاعدة، ثم يؤدَّى قوله تعالى ﴿**يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ/ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا/ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وهو يحوي جملة مقول القول المكونة من أداة النداء (يا)، والمنادى المحذوف، وأداة التمني (ليت)، واسمها (نا)، وخبرها (نُردُّ)، والجملة التالية لها المتصدرة بواو المعية والفعل المنفي (ولا نكذب)، وما يتعلق به من الجار والمجرور (بآيات)، وما يتمم معنى الجملة من المضاف إليه (ربنا)، وكذلك الجملة التالية لها أيضًا، وهي جملة (ونكون من المؤمنين)[٢]، فيؤدى ذلك كله بنغمة هابطة تتدرج لتبلغ مدى انخفاضهاعند نهاية الآية، وهنا نلحظ أن النظام النحوي والتنغيم يقوي كل منهما الآخر، فالنظام يساعد على الأداء الصوتي بهذه الطريقة، وكذلك إن تم الأداء الصوتي بطريقة صحيحة لدل على مراد النظام، فصدر الآية الذي تم تخصيص النغمة الصاعدة له هو من كلام الله تبارك وتعالى من ناحية، وجملة مرتبطة بما بعدها من ناحية أخرى، فحقها أن تُؤَدَّى بنغمة صاعدة، أما مقول القول فكلامهم من ناحية، وهم في موقف ضعف من ناحية أخرى، وكلام يتمم المعنى من ناحية ثالثة، فهو غير متعلق بما بعده، فيجب أن يؤدى بنغمة هابطة، ومن ثم يتضح الدور الذي قام به التنغيم من أجل تقوية النظام، مع إدراك أن التنغيم لو اختل لما أثر على النظام، حيث تدل قرائن أخرى في مقدمتها العلامة الإعرابية على المعنى المراد.

وكذلك فإن التنغيم لن يتعارض مع النظام النحوي على قراءة الرفع، ولن يختلف إلا جعل الواو عاطفة، ومن ثم يعمل التنغيم في مثل ذلك على دعم النظام النحوى.

ومما يتضح فيه دور التنغيم في تقوية النظام النحوي أسلوب النداء، وذلك عندما يُذكر ركنا النداء صريحين، ولا يحتاج التركيب إلى تأويل أيٍّ منهما، ولبيان ذلك ندلف إلى النص القرآني، حيث يقول الله تبارك وتعالى ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٣] فهنا يختلف الإطار الصوتي الذي يؤدى به النداء في هذه الآية القرآنية عنه إذا ما حُذفت الأداة أو المنادى، فذكر أداة النداء والمنادى يجعل كلًّا من أداة النداء والمنادى كتلة صوتية واحدة عند النطق[١]، لا

---

[٢] ينظر أبو حيان: البحر المحيط، ٤/ ٤٧٤.

[١] ينظر الدكتور أحمد كشك: من وظائف الصوت اللغوي، صـــ١٠٠.

يمكن فصل أحدهما عن الآخر، ومن ثم نلمس مدى الترابط الموجود بينهما، إضافة إلى عدم إعطاء مجال للتأويل بشيء ليس منصوصًا عليه في التركيب، إضافة إلى أن ذكر الأداة حسم القول في طبيعة الأسلوب المستخدم، فما هو إلا أسلوب إنشائي، على عكس ما إذا حُذفت الأداة فإنها تعطي مجالًا للتأويل بالفعل المضارع (أدعو)، وذلك يؤدي إلى قلب نوع الأسلوب، من الأسلوب الإنشائي في النداء على بابه إلى الأسلوب الخبري عند التأويل بالفعل من أجل استقامة المعنى، ومن ثم فالتنغيم- مع ذكر ركني النداء- في أسلوب النداء يؤدي دورًا مهمًا في إبراز الدور المتميز الذي يتمتع به النظام من وضوح في الدلالة من ناحية، وقصر الأسلوب على الإنشاء من ناحية أخرى، إضافة إلى وحدة الأداء الصوتي الذي يُؤَدَّى به التركيب من ناحية ثالثة، بل إن ذكر المنادى يُعدُّ تخفيفًا على الجهاز الصوتي في النطق؛ حيث إن حذفه يضطر المتكلم إلى إعطاء سكتة خفيفة بين الأداة المذكورة، والكلام الذي يأتي بعدها، هذه السكتة الخفيفة من أجل الدلالة على المحذوف، إلا أنها في الوقت نفسه تُعد عائقًا له عن استرسال النطق في سهولة ويسر، ومن ثم تتضح قيمة الإطار الصوتي في أسلوب النداء، ودوره في تقوية النظام النحوي بعدم الحاجة إلى تأويل أيٍّ من ركنيه من ناحية، وتخفيف الأداء من ناحية أخرى.

ومما يتضح فيه دور التنغيم في تقوية النظام النحوي أسلوب الاستفهام بالأدوات، حيث يتطلب إطارًا صوتيًّا معيَّنًا، فالجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة، مثل: أين، ومتى، ولماذا... تحتاج نغمة صوتية هابطة، وهي تلك النغمة التي تتصف بالهبوط في نهايتها على الرغم مما قد تنتظمه من تلوينات جزئية داخلية[1]، ومثال ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿**مَاذَا قَالَ آنِفًا**﴾ [محمد: ١٦] حيث قرأ الجميع ﴿**آنِفًا**﴾ ممدودًا، إلا ابن كثير وحده قرأ ﴿**أَنِفًا**﴾ قصرًا[2]، فالإطار الصوتي الذي تؤدى به هذه الجملة هو النغمة الهابطة، هذه النغمة لها ما يساعد على أدائها بسهولة ويسر داخل التركيب، حيث كثرة ورود حرف المد بها، وهو «الألف» الذي يحتاج إلى مطل الصوت، ولا شك أن مطل الصوت يساعد على خروج النغمة الهابطة بلا اضطراب أو خلل، إضافة إلى ذلك فإن ذكر أداة الاستفهام يؤدي إلى ثبات أداء هذه النغمة؛ فالتركيب نفسه لا يحتاج بجوار

---

[1] ينظر الدكتور كمال بشر: علم الأصوات، صـ٥٣٦.

[2] ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـ٦٠٠، وابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٣٧٤.

مكوناته الفعلية الموجودة إلى ما يقوي الدلالة على الاستفهام، فمجئ التنغيم بصورته المطلوبة وهي النغمة الهابطة يدعم النظام، فإذا ما اختل التنغيم لسبب ما، يكون عيبًا في طريقة الأداء الصوتي إلا أنه لا يعوق غرض الاستفهام في شيء، فالمعوّل عليه حالة غياب التنغيم هو ظاهر التركيب وما تشير إليه مكوناته، فالتنغيم- إذا ما جاء منسجمًا- في مثل هذا التركيب، وأمثاله من أساليب الاستفهام ذات الأدوات الخاصة يكون عاملًا مساعدًا في تقوية الدلالة، فإذا ما اختل فدلالة التركيب ثابتة، ويُحمل الخللُ على أنه عيب في الأداء الصوتي.

وهذا المثال الذي ذكرته تتسم نغمته بالانسجام في الأداء على القراءة الأولى ﴿**آنِفًا**﴾ ممدودًا، أكثر من قراءة القصر؛ وذلك لأن كثرة المُدودِ تساعد على أداء النغمة الهابطة بدقة، بخلاف الانتقال السريع في أداء حروف مختلفة، قد يتطلب كل منها مخرجًا مختلفًا يعوق أداء النغمة كما يجب، كما أن كلمة (آنفًا) بما حوته من مطل في أولها، وإطلاق الحركة في آخرها تجعل النغمة تبلغ مداها في الهبوط عند النهاية، فتكون أيسر على جهاز النطق (الجهاز الصوتي) عند الأداء.

ومما يتضح فيه دور التنغيم في تقوية النظام النحوي الجمل الاستفهامية التي تستوجب الإجابة بـــ«لا» أو «نعم» وهي تختلف عن سابقتها في النغمة التي تتطلبها، حيث تتطلب نغمة صاعدة، وهي تلك النغمة التي تتطلب صعودًا في نهايتها، بالرغم من تنوع أمثلتها الجزئية الداخلية[1]، ومثال ذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر: ٣٦] حيث قرأ الجميع ﴿**بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ واحدًا، إلا حمزة، والكسائي، وأبا جعفر وخلفًا قرءوا ﴿**بِكَافٍ عِبَادَهُ**﴾ جمعًا[2]، فالإطار الصوتي الذي يجب أن تؤدى به مثل هذه الجملة الاستفهامية هو النغمة الصاعدة، والسؤال هنا منفي يستدعي الإجابة بـــ«بلى» وهي إجابة موجزة على المجيب، فنغمة السؤال الصاعدة لا تتطلب إسهابًا في الإجابة، وهذا يذكرنا بما نواجهه في أحداثنا اليومية في المواقف المختلفة، عندما يكون الفرد منا في حالة عصبية ويتحدث مستخدما النغمة الصاعدة، لا يرغب في الإجابة أو الرد من مخاطبه، إلا في نطاق ضيق بإشارة، أو كلمة، أو اثنتين، والسكوت أفضل.

---

(١) ينظر الدكتور كمال بشر: الأصوات اللغوية، صـــ٥٣٦.

(٢) ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـــ٥٦٢، وابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ٢/ ٢٦٢، ٣٦٣.

ونعود إلى مثالنا الذي نحن بصدد الحديث عنه، نجد أن مقومات الانسجام بين النظام النحوي والتنغيم موجودة، فأداة الاستفهام تعد أول عامل من عوامل الانسجام، فبذكرها استقر النظام بغلق باب التأويل، ثم نجد السؤال يبدأ بهمزة الاستفهام وهي حرف حلقي تتناسب معه النغمة الصاعدة، فمطلبه إجهاد الجهاز الصوتي عند النطق به، ثم اسم الجلالة (الله) وما يستدعيه من التعظيم والإجلال عند النطق به، وما يرد في التركيب من قرائن لفظية ومعنوية يؤيد ذلك: فأما القرينة اللفظية فمسبوق بالفتحة التي تتطلب تفخيمه عند النطق به، وأما القرينة المعنوية فتستفاد من سياق الموقف الذي نزلت فيه هذه الآية القرآنية، فلقد نزلت بسبب تخويف المشركين للنبي محمد (ﷺ) من الأوثان والآلهة أن تصيبه بسوء، بسبب براءته (ﷺ) منها، وعيبه (ﷺ) لها، والله تبارك وتعالى هنا يطمئنه بالعزة والنصر، وذلك يتطلب النطق به مفخمًا؛ لإظهار العظمة، والعزة، والقدرة الكافية لله تبارك وتعالى القادر على عزة حبيبه محمد (ﷺ) ونصرته[1]، ثم تأتي في نهاية الجملة- وهو موضع القمة في النغمة الصاعدة- كلمة «عَبْدَه»، وهي مكونة من أربعة أحرف، منها اثنان حلقيان، وهما: العين، والهاء، واثنان من حروف القلقلة، وهما: الباء، والدال، وهذه الحروف جميعًا تتطلب مزيدًا من بذل الجهد في أدائها سواء أكانت حروف الإظهار الحلقي أو حروف القلقلة، وذلك كله ينسجم مع النغمة الصاعدة التي تختتم بها الجملة، وذلك يتضح أكثر في القراءة بالإفراد؛ حيث إن قراءة الجمع يتخللها الألف الذي يحتاج إلى مطل الصوت مما يسبب إضعاف النغمة، إلا أنها تستمر على صعودها أيضًا.

وفي هذه الجملة السابقة نلحظ أن مجيء التنغيم كما يتطلبه التركيب يؤدي إلى إبراز دور مفردات التركيب، أو عناصره، وتضامها في أداء المعنى المراد، فإذا ما انعدم التنغيم أو جاء مخالفًا لما يتطلبه التركيب، أغنت قرائن أخرى عن دوره، في مقدمة هذه القرائن الأداة وما يتضام معها من مكونات التركيب.

وشبيه بذلك قوله تعالى ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات: ١٢] حيث قرأ الجميع ﴿**مَيْتًا**﴾ ساكنة الياء، وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب

[1] ينظر الطبري: جامع البيان، ٢١/ ٢٩٤.

﴿**مَيِّتًا**﴾ بالتشديد[1]، فالإطار الصوتي الذي يجب أن تؤدى به مثل هذه الجملة الاستفهامية هو النغمة الصاعدة، وهذه الجملة تنقسم في الأداء الصوتي إلى قسمين هكذا: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا/ فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾، فالجزء الأول منها يبدأ بهمزة الاستفهام، وينتهي عند قوله ﴿**مَيْتًا**﴾، وهذا يُؤَدّى بنغمة صاعدة تبلغ قمتها عند نهايتها، ويؤيد ذلك أكثر من قرينة، فعلاوة على أنها جملة استفهامية، فهي جملة أيضًا معلقة بما بعدها؛ حيث إن معناها لم يكتمل، كما أنها استفهام تقريري[2]، والاستفهام التقريري بالنغمة الصاعدة أبلغ في أداء المعنى، ثم يأتي قوله ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ بنغمة هابطة؛ حيث إنه المتمم للمعنى من ناحية، ولا يرتبط بشيءٍ بعده من ناحية أخرى، ثم تأتي علامة الوقف الجائز(ج) بعد قوله ﴿**فكرهتموه**﴾؛ لتعطي الجهاز الصوتي رخصة جواز الوقف، ليكون الوقف نتيجة منطقية مناسبة لما تَقَدَّمَه في البداية من نغمة صاعدة، ثم نغمة هابطة، فيكون الوقف هو المترتب عليهما.

وهنا نلحظ أن التنغيم قرينة لفظية تتضافر مع مكونات التركيب من أجل أداء المعنى المراد، فإذا ما اختفى التنغيم من التركيب أغنت عنه قرائن أخرى.

وفي نهاية حديثي عن النظام النحوي والتنغيم، يمكن القول: إن التنغيم يعد وسيلة من وسائل التعبير، فإن كانت اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، فإن التنغيم ما هو إلا صوت من هذه الأصوات، يستخدم في التعبير عن أغراض معينة، كما يمكن القول: إن هذا الدور الذي يقوم به التنغيم يكون إيجابيًّا كلما كان موافقًا في الأداء لما يتطلبه التركيب من ناحية، وتدل عليه القرائن الأخرى من ناحية ثانية، كما أنه إذا جاء مخالفًا في الأداء لما يتطلبه التركيب فإنه لا يؤثر سلبيًّا على دلالة التركيب، إذا ما أغنت عنه القرائن الأخرى، ومن ثم يبدو أن دوره قد يكون ثانويًّا بجوار القرائن الأخرى، فإذا ما غابت هذه القرائن يصبح المعوّل عليه الأساس هو التنغيم، وذلك قد يكون سببًا من الأسباب التي جعلت النحاة لم يولوه مزيدًا من الاهتمام رغم إدراكهم قيمته التي تبدو عند غياب القرائن الأخرى، من ناحية أخرى فإن تناولي لأنواع التنغيم، على أن هناك نغمة صاعدة ونغمة هابطة، ذلك مراعاة لنهاية التنغيم فقط، وذلك ميلًا

---

[1] ينظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات، صـــ٦٠٦، والبناء: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق أنس مهرة، ١/ ١٩٧، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـــ، دار الكتب العلمية، لبنان.

[2] ينظر ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٦/ ٢٥٥، ١٩٨٤م، الدار التونسية، تونس.

إلى الإيجاز، دون التعرض للإطار الداخلي، أو شكل النغمة الذي يحتاج مزيدًا من التفصيل، فذلك يتطلب مقامًا أرحب مما نحن فيه.

وتذييلًا لهذا المبحث، فإنني تحدثت فيه عن علاقة النظام النحوي بالقرائن الصوتية متمثلة في قرينتي العلامة الإعرابية والتنغيم، والذي يبدو لي من خلاله أن النظام النحوي يكون مستقرًّا كلما اتضحت الوظائف النحوية دون حاجة إلى تأويل أو احتمال في الإعراب، وذلك ظهر جليًّا مع القرينتين محل التناول، إلا أن العلامة الإعرابية كانت أكثر تأثيرًا، وذلك لتحققها نطقًا وكتابة، مما يلفت النظر إلى السبب وراء اهتمام النحاة المبالغ فيه بالعلامات الإعرابية، وعدم توجيه الاهتمام نفسه للتنغيم أو لأي قرينة أخرى، ومن ثم يجب إعادة النظر وتوجيه الاهتمام لبقية القرائن، وخاصة التنغيم الذي لم يحظَ حتى الآن بجهد يتناسب مع دوره في بيان المعنى المراد، وإن قلت التراكيب التي يؤدي فيها هذا الدور بوضوح.